من الأدب البولندى

إنى أقتل نفسى

بقلم الكاتب البولندى المعاصر : جوليان كوليك

ترجمة : حسين القباني

جوليان كوليك مشهور فى بولندا كصحفى واديب . وقد تخرج فى جامعة كراكا ومتخصصا فى فقة اللغة البولندية . ثم اشتغل بالصحافة والادب معا بعد الحرب العالمية الثانية وقد ولد فى قرية صغيرة بجوار مدينة ساندر بيرز لأب من صغار الملاك . وقد صدرت له مجموعتان من القصص القصيرة : « ممرات فى الشوارع » و « الجروح » .

لسوف ادمر اليوم قنبلة زيتا . سافعل هذه الليلة عندما أبدأ دورتى التفتيشية فى معمل الجيش . سابلغ اليوم ذروة القدرة على التضحية . وقد ادركت هذه الحقيقة عندما رنوت الى اغصان الشجر الرقيقة الآسية ، ولست ادرى لماذا ادركت هذه الحقيقة فى لحظة رؤيتى للشجر .

اننى اسير فى طريق عريض بالحديقة العامة . واننى لاشعر فى عمق ببرودة الهواء وان الناس ليمرون بى . انهم لا يحفلون بامرى : انهم لايعرفون اننى ـ هذا الرجل العادى المظهر بمعطف المطر الرمادى والاذنين الكبيرتين والشامة على الخد ـ قادر على القيام بتضحية ذاتية ضخمة ، ففى هذا المساء سوف ادير المفتاح فى قفل باب الخزانة الحديدية ، وافتحه ، واتناول منها شيئا يشبه بيضة الاوزة الكبيرة : تلك هى قنبلة زيتا . وان المسافة بين دبوس التفجير ومركز الانفجار لا تزيد على ثلاثة ملليمترات . هذه هى المسافة التى قدرها البروفسور لومبارد لدبوس التفجير عندما وضع القنبلة فى كيسها الجلدى . وان قنبلة زيتا لترقد فى كيسها كالطفل بين لفائف الثياب . واليوم سادمر هذا الطفل الفولاذى لانى استطعت اليوم ان ابلغ القدرة على القيام بهذه التضحية العظيمة .. التضحية بالنفس .

ينبغى ان افعل هذا .. ينبغى أن احرر البشرية من هذا الكابوس الرهيب ، من هذه القوة المدمرة العنيفة . لماذا يكون لهذا الدبوس الفولاذى الدقيق القدرة على قتل الناس أو احيائهم ؟ فطالما أن هذا الدبوس لا يلمس مركز

الانفجار ، فان الشمس تستمر فى سطوعها ، اما اذا لمس المركز ، فان الليل يجثم ، والناس يموتون ،وتتهاوى الاطيار كالشهب . ان قوة قنبلة زيتا على التدمير تفوق بلايين المرات قوة أكبر القنابل الهيدروجينية على التدمير وهى اذا انفجرت ، فالنتيجة لا تكون الموت فحسب ، لأن الموت قوة موازنة للحياة ، يمكن مناقشتها ، ويمكن التنازع معها والمصالحة . اما الموت الناتج من انفجار قنبلة زيتا فهو شىء مجهول. شىء يختلف عن الموت البسيط الذى تعرفه البشرية ، ولهذا يجب البحث عن كلمة اخرى تعبر عنه .

انى اسير فى طرقات الحديقة العامة منتظرا الليل . وعندما يأتى الليل سوف ادمر طفل البروفسور لومبارد الفولاذى « . سوف أفك دبوس التفجير واقذف بالقنبلة فى مستنقع والقى بدبوس التفجير فى نهر بعيد عن المستنقع بخمسة كيلومترات على الاقل. وبهذا لا تلتقى القنبلة والدبوس مرة اخرى قط . وطالما انهما لا يلتقيان ، فسوف يظل العالم باقيا وسوف أحرق الوثائق الخاصة بتصميمات واسرار صناعة القنبلة ، ثم اسحق بقدمى رمادها . ولن يطول العمر بالبروفسور لومبارد لكى يضع « طفلا فولاذيا » آخر .

سوف ادمر قنبلة زيتا . سأفعل هذا من أجل الأشجار والحيوانات والأطيار والناس والحشرات، سأفعل هذا من أجلى ومن أجل هذا الشاب ذى الشعر الاسود الجالس على مقعد مخفى بين الشجر فى انتظار فتاته . ومن اجلك ايها الجزع المتآكل ومن أجل ما فيك من حشرات . ومن أجلك انت أيتها الدودة السوداء الناخرة فى باطن الارض .

انى لاشعر وانا بين كل هؤلاء الناس والاشجار بعزلة ثقيلة هائلة . فانا لا استطيع ان اخبر احدا بما انوى ان افعله ، لأنى أخشى من انهم قد يمنعوننى من القيام بتدمير القنبلة . ولكن التضحية الكبرى ، مع هذا ، تحتاج الى عزلة كبرى . ولو انى تحدثت عنها لأشركت غيرى فيها ، ولأصفرت من شأنها . ولكن هذا الشعور بالعزلة لا يضعف عزيمتى .

ان السماء تنحسر عن الطرف البعيد من الطريق، وهذا يعنى أن المساء يوشك أن يحل . وانى لأترك الحديقة. ولسوف امضى اليوم الى المعمل . سآخذ الطريق الذى يبدو ابيض بين المنازل الصغيرة والأراضى المتقاطعة . وانى لأسمع عن يسارى شخصا يغنى وعن يمينى أسمع النسائم الرقيقة وهى تداعب الأغصان الجافة . وبعد لحظة سيتوقف الغناء وحسيس الرياح معا. وسيخيم الصمت على كل شىء .

ووصلت بعد غابة الشربين الصغيرة الى حاجز المراقبة الأول .انهم يسلطون على حزمة من الضوء . لقد تعرفوا على. ان الحراس يعرفون رئيس مساعدى المعمل تمام المعرفة انه انسان هادىء وادع بأذنين كبيرتين وشامة على الخد. ومررت من حاجز المراقبة الأول . وان الطريق ليبدو مصقولا كسطح مائدة . وان لمعمل الجيش طرقات جيدة التمهيد تفضى اليه . وعند خميلة الاشجار الكثيفة الاوراق وصلت الى الحاجز الثانى . وتعرفوا على بشلاثة حزم

من الانوار الكاشفة تماما كما فعلوا مع طائر استيقظ فى الشجرة وراح يزقزق .

وتأملوننى بامعان رغم أنهم جميعا يعرفوننى ، ورغم أنهم يعرفون اننى رئيس مساعدى المعمل الذى من حقه ان يعرف كل اسراره . وكان الطريق ، بعد الحاجز الثانى ، يمضى تحت الارض . وها انا اسير الآن فى داخل نفق مضاء . وان الجدران الجانبية للنفق لزاخرة بعدد لا يحصى من الفتحات الصغيرة التى يطل منها الحراس برءوسهم . ومن ثم فان على الانسان ان يسير بهدوء وثبات داخل النفق ، وخير شىء له ان يصغر

وفى فتحة صغيرة باهرة الاضاءة ، ابرزت أوراق تحقيق الشخصية ، ثم دخلت فى نفق ضيق . وفتح لى حارس طويل القامة بابا حديديا . وها انا الآن فى غرفة الانتظار بالمعمل . اننى فيها بمفردى . ولهذا بدات العمل . اننى انحنى على الدرج السرى الذى يحتوى على المفاتيح ، ولا يعرف بأمر هذا الدرج غير البروفسور ، ومدير المعمل ، وانا.

وتناولت المفتاح ، ونزعت من الغرفة الثالثة بالمعمل جهاز الانذار المتصل بالخزانة الحديدية . وفتحت درجا وأخذت منه قنبلة زيتا الراقدة فى كيسها الجلدى .ان زيتا باردة ملساء وان فى مقدورى ان ادمرها هنا .. فى المعمل. يمكننى ان احللها تماما ولكن هذا يستغرق وقتا طويلا . ولسوف يحضر مساعدو المعمل الثلاثة المرءوسين لى بعد لحظات . ولهذا اخفيت القنبلة وتصميماتها فى جيب كبير بمعطف المطر الذى حملته على ذراعى . واتصلت تليفونيا بالبروفسور لومبارد عن طريق رقم سرى لايعرفه احد غيرى وغير مدير المعمل . وقلت له اننى نسيت احضار ادوات هامة من المخزن ويجب الصعود لاحضارها بنفسى فورا .

وفى لحظة او اثنتين كنت فى طريق العودة .لم يحتجزنى احد فى حواجز المراقبة ذلك ان التعليمات صدرت الى رئيس الحرس بأن الأمر يتعلق باحضار ادوات هامة الى المعمل بسرعة .

ومررت من آخر حاجز للمراقبة . ولم يعد هناك مزيد من الأنوار الكاشفة وانى من ثم لأنعطف عن الطريق العام وامضى عبر أرض منبسطة رخوة ، فى اتجاه خمائل الحور لا شك أن هذا حقل معد للزراعة . وان الليل لمتكاثف ، والجو بارد . وانى لارتدى معطفى. انها معى . القنبلة ، وفى كل خطوة اقطعها اشعر بها تحتك فى ضلوعى . وبين الحين والآخر ادس يدى الى جيبى لاطمئن على وجودها . انها موجودة .. موجودة ، وانى لألمسها بيدى .وانها لباردة ملساء وقد عنى البروفسور لومبارد بصقلها وتلميعها ، وبعث فيها بريق مرآة رهيبة ملتوية . وتحت سبابتى كنت أحس براس دبوس التفجير . وان كل ماعلى أن أفعله هو ازاحة حاجز الأمان ، والضغط على راس الدبوس الصغير ، وعندئذ لايبقى من العالم الا هباء تذروه الرياح . وايا كان امر هذا الهباء ،فانه سيكون شيئا لا يرى ولا يعرف امره. ولكن هذا لن يحدث ابدا فبعد قليل سألقى بقنبلة زيتا الى المستنقع ، سألقيها بكل قواى حتى تسقط فى وسطه تماما حيث يكون الطين شديد

الكثافة ، فتفوص فيه بسرعة وسهولة اكثر . وسوف القى بدبوس التفجير فى النهر . فمن ذا يمكن ان يعثر على دبوس لا يزيد فى السمك عن ابرة الا قليلا .

***

وبعدئذ يجب ان اختبىء. يجب ان أعثر على مخبأ أمين ، لأنهم سيبحثون عنى بكل تأكيد . ويمكننى القول ان جميع القوات البوليسية ، ولا سيما الادارات العسكرية وقواتها، والمخابرات السرية ، سوف تستدعى للبحث عنى . واستطيع من الآن ان ارى وان اسمع الاوامر التى ستصدر ، والتعليمات التى ستذاع . ما اشد زعيقهم وما افظع همساتهم .. كل هذا للعثور على . ولكن التضحية العظمى التى وطنت نفسى عليها تجعلنى لا احفل بمثل هذه الاشياء . بل ان التضحية العظمى تستلزم هذه الاشياء . ولكن مع هذا فان التضحية العظمى لا تحتم على ــ بعد تدمير القنبلة ــ ان اضع عن نفسى طواعية واختيار بين أيدى الذين صنعوها . اننى لا استطيع ان امنحهم هذه البهجة لا استطيع ان امنح هؤلاء الاشرار اى احساس بالرضا . ومن ثم يجب على ــ بعد ان ادمر طفل البروفسور ــ لومبارد الفولاذى ، ان اختبىء بعيدا . وان الناس الذين من اجلهم اقدم هذه التضحية ، سوف يحموننى . ولسوف ينصرم وقت طويل قبل ان يعرفوا شيئا عن مغامرتى ، قبل ان يدركوا مدى النفع الذى يعود عليهم منها ، لسوف يتوقفون ليفكروا فى الامر . سوف يواجهون الشك والريبة .. ولعلهم بعد ذلك يستجمعون الشجاعة او يخضعون للجبن ، ومن يدرى .. فربما اعدوا انفسهم لحمايتى بعد فوات الاوان ولهذا يجب أن أبحث عن مخبأ أمين . ولكن اذا اقتفوا آثارى، واذا سمعت وقع خطواتهم وصلصلة أحزمتهم الحاملة لاسلحتهم ، وحفيف ملابسهم الرسمية، وهرير كلابهم المرهفة المدربة هل أخرج من مخبئى رافعا يدى ؟ هل تضحيتى الذاتية تستلزم أن أقاوم ببسالة ، او اتجنب المقاومة ببسالة ايضا ، هل اقاوم .. واقاوم ببسالة؟ ولكن تضحيتى ترتبط بالمقاومة الحكيمة التى تحتم على فى ظروف معينة ان اختبىء عن العدو ، وان اخدع العدو . ولهذا فلن أخرج من مخبئى لأواجه البوليس ويداى مرفوعتان . وانما ــ على الاصح ــ سوف اثب ــ فى اللحظة التى يرونني فيها ــ الى عنق اقرب رجال البوليس الى .. واذا كان لدى مسدس فيجب أن اقتل عددا كبيرا منهم قبل ان اموت . واذا كان لدى مدفع رشاش فيجب ان اقتل عشرات منهم وانا فى مخبئى .

ان الارض التى اسير عليها لم تعد الآن لينة او رخوة، وانما صلبة ومليئة بعقود العشب .. اذن فقد اقتربت ولا شك من خميلة اشجار الحور . واعتقد انى ارى رقعة سوداء امامى . نعم ..لاشك أن هذه هى خميلة اشجار الحور . واعتقد انى ارى رقعة سوداء امامى . نعم .. لاشك ان هذه هى خميلة أشجار الحور . وان المستنقع يقع وراءها مباشرة . وان هذه العقود العشبية لتزداد وتزداد كلما تقدمت. وان خطواتى لتتعثر وتقصر . وفى بعض الاحيان تنزلق قدمى الى ابعد مما اتوقع وعندئذ اضطر الى التوقف فجأة ،

وعندئذ تصطدم قنبلة زيتا بضلوعي في عنف . انها تلح دائما في تذكيري بوجودها ، واني لأدس يدي بسرعة في جيب معطفي آه .. انها هناك .. هناك وانها ليست باردة جدا كما كانت بل صارت اكثر دفئا . وان شكلها لم يعد قبيحا جدا . ولكنها وحش يهددنا بشيء لايمكن أن نسميه الموت أو السكون .. أو بأية كلمة اخرى من قاموسنا العصري . انه وحش رهيب نائم .

وازدادت الرقعة السوداء سوادا . وان خميلة الحور لتمسي قريبة جدا . وان السكون ليشمل كل شيء

واني لأستطيع الآن أن اسمع همهمة الاشجار الرقيقة . انني الآن في قلب خميلة اشجار الحور . واني لأسير في ممر ضيق ، وان الاشجار لتحوطني بعودة . انها تهمس لي بشيء ان قنبلة زيتا يجب أن تدمر حتى يمكن لاشجار الحور أن تعيش . وعادت الارض بعد خميلة الحور مرة اخرى . ولكنها لم تكن رخاوة الارض المعدة للزراعة، وانما رخاوة المطاط انني أشعر بالمستنقع .. يمكنني ان اسمعه . ان له ايضا صوته، وان صوت المستنقع ليشبه انفاس الرجل المحتضر . ويمكنني أن استمر في السير ، لأن قدمي لا تغوصان بعد. وانا اعرف أن في مقدوري الاستمرار في السير حتى أصل الى أول صف من صفوف نبات الغاب

ومن ثم لم يبق أمامي غير لحظات وان الارض تزداد رخاوة بعد كل خطوة . ها أنا قد وصلت الى المكان المناسب . الى أول صف في نبات الغاب ، وأسرعت بوضع يدي في جيب مصطفى ان القنبلة دافئة . واني لأضع معدنها الدافيء الاملس في كفي مدة طويلة . واني أخيرا أخرج زيتا من جيبي بحذر . انها الان في كفي . وبعد لحظة سيتم كل شيء . بعد لحظة سينجو العالم من دمار رهيب، ولكن العالم لا يعرف شيئا من ذلك . ولكن العالم هادىء ساكن ، لا يحفل بشيء . فهل يمكن أن ينم عمل عظيم كهذا ، في مثل سكون كبير كهذا ؟ اني أضع ابهام وسبابة يدي اليمنى على صمام الامان . ولكنني أسمع وأنا أفعل هذا ، حفيفا مرتفعا . واني لأمسك بصمام الامان وأرفعه . انني مطارد لا .. انها الرياح فقط تجري على اطراف الغاب. ولكن ..اذا كانت هناك مطاردة حقا .. اذا كان الكلاب تشق طريقها ورائي.. وتبدأ في النباح عند حافة المستنقع اذ فوجئت بظهور أول رجل بوليس أمامي .. يمكنني عندئذ أن أهددهم بالقنبلة .. يمكنني أن أصيح بهم وتوقفوا .. ان قنبلة زيتا في يدي وشريط الامان مرفوع . ان دبوس التفجير على مسافة مليمتر واحد من مركز الانفجار اذا تقدمتم خطوة واحدة ،لسوف أضغط على الدبوس . ولا جدوى من اطلاق النار علي ، لأن سقوط القنبلة من يدي سيهزها بعنف فتنفجر . وسوف تموتون ، .

ولكنني لن أكون الشخص الوحيد الذي سيموت عندئذ . ولن يكونوا هم الاشخاص الوحيدين الذين سيموتون.. سوف يموت معنا ملايين الابرياء . ان هذه الافكار لا ينبغي أن تدور برأس رجل قرر أن يضحي بنفسه . ومع ذلك فان رجال البوليس لن يتقدموا خطوة واحدة اذا هددتهم بالقنبلة . انهم جبناء . ولن يحدث شيء من ثم للعالم . وشجاعتي التي ينبغي أن ترتفع الى مستوى تضحيتي لن ينالها شيء أيضا ،

فانا لا أهـــدد رجـــال البوليس لانهم خائنون ، وانما لانهم فى خدمة أولئك الذين يصنعون القنبلة ... أو اولئك الذين أكرههم . ولهذا ينبغى أن يدخل التهديد والكراهية فى برنامج التضحية انى لأتشبث بهـــذه الفكرة وأعتبرها رائعة أصيلة . لأنى أستطيع بهـــا أن اسيطر على صناع قنبلة زيتا ومساعديهم واخضعهم لارادتى ، وأفعل بهم ما أشاء. وهذه تضحية حكيمة يمكننى أن آمرهم بالمضى الى هاوية بين التلال حيث أتركهم هناك ليموتوا جوعا.. يمكننى أن أرسل البروفسور لومبـــارد هنـــاك ، ومدير المعمل أيضا ، شـــكرا لهذا الحفيف فى الغاب لقد أثار تغييرا كبيرا فى خواطرى.

انني لن أدمر قنبلة زيتـــا . وليتنى احضرت معى كيسها الجلدى أيضا عندما ظفرت بها . لأنى فى هذه الحالة كنت سأجد شيئا أحفظها فيه لسوف أحتفظ بزيتا وأكرسها لأغراض الخير . وانى لمندهش لاغفالى الدلالة العظمى لما تنطوى عليه القنبلة من خدمات من هذا النوع .

لقد أعمتنى التضـــحية الذاتية عن معرفة أى شىء الا أن هذه القنبلة هى منبع شر خطير . أما الحكمة التى أقرنها الآن مع التضحية ، فانها تجعلنى أنظر الى قنبلـــة زيتـــا من زوايا مختلفـــة . فبمساعدة زيتا أستطيع أن أحرر العالم من أخطار زيتا . فعن طريق التهديد بها أستطيع أن آمر مديرى المعامل التى تصنعها ان تدمر كل انتـــاج للقنـــابل المـــائلة . أســـتطيع أن أقلم مخـــالب البروفسور لومبارد وجميع الاخصائيين فى صـــناعة هذا اللون من القنـــابل ومســـاعديهم أســـتطيع أن أفعل هذا عندما أجعل حـــافة دبوس التدمير على مسافة ملليمتر من مركز الانفجار . ان الخوف من انفجارها سيرغمهم على الخضوع والامتثـــال لأوامرى ان فى مقـــدورى ـ وزيتـــا معى ـ أن أحطم كل رجل شرير . أستطيع بزيتا أن أفعل الكثير . أن أفعل كل شىء تقريبا . ولماذا أقول « تقريبا » . انى فى وضع لا يبيح لى فقط أن أقـــوم باصلاحات عامة ، وانما يمكننى أن أتدخل فى حياة كل انسان على وجه الارض وأغير من تفكيره . ويمكننى اذا شئت أن أجعل أغنى التجار يسلمنى مخازنه . يمكننى اذا شئت أن أجعل المسز اميليا أن تهجر زوجها الذى تحبه وتنحنى أمـــامـــه ثم تمضى مشردة فى العالم . يمكننى اذا شئت أن أجعل ابنة مدير المعمل تتدم نفسها الى عارية . يمكننى أن أصـــدر أوامرى الى عميد العلوم لكى يحلق لحيته ويتسلق احدى أشجار حديقة عامة فى وضح النهار . وانى لأتخيل المنظر وأضحك ـ منظر عميد العلوم وهو يتسلق شجرة الى قمتهـــا بخفة القـــرد . انى أرى الآن الناس يتوافدون من جميع أنحاء العالم لينحنوا أمـــامى ويقـــدمون لى مختلف الاشـــياء ويمنحوننى الالقـــاب أحدهم يعطينى فيلا على الشـــاطىء ، وآخـــر يرجوننى لأقبل درجة الدكتوراه فى جميع العلوم ، وآخر يشرح ـ بكل تواضع ـ أن الملـــكية هى خير نظم الحكم وانني خير من يصـــلح لان يـــكون ملكا لاننى رائع المنظر ممتاز فى الذكاء . وان بعضهم يقولون لى اننى أتمتع بأذنين جميلتين.

اننى أحـــاول أن أنفض عنى هـــذه الافكار . لأنى اذا كنت أريد العمل من أجل الخير ، فيجب أن أعد نفسى لتدمير

الشر . وهذا مايدفعني للاحتفاظ بزيتا . فلكي أدمر الشر يجب أن أقسم الناس الى فئتين : الاشرار والاخيار .

انى أستطيع هذا . ولسوف أكون الفيصل الاعلى . ولكن لمـــاذا اتحدث بصيغة المستقبل ؟ اننى الآن الفيصل الأعلى . فليس هناك من هو أعلى شأنا لشد ما صارت جميـلة ؟ وما أعـذب ملمسها وألطفه ؟ وما أبهى سطوعها ؟ اننى أضم زيتا الى قلبى .. أقبلها .

ماهذا الذى أقول ؟ . وما هذا الذى افعل ؟ ولكن لماذا أسأل ؟ اننى أفعل وانجز ماينبغى أن يتم . ان هذا كله ينطوى تحت برنامجى الانسانى الضخم للتضحية . اننى لا أستطيع أن أتردد . بل سأكون مضحكا اذا ترددت . اننى قيصر .. نابليون .. الاسكندر الاكبر ، اننى الفيصل الأعلى .. انتى الـه .. بل أكثر من الـه . اننى أهتف « أنا اله » ان الاشجار تعرف هـذا الآن أنها تنحنى أمامى الى الارض . لكن المخلوقات الآدمية لاتعرف هذا بعد . ولهذا فانى أعود مسرعا الى المدينة من أقصر طريق .. الى الحكم .. سوف أحكم .. ان جميع البشر أشرار ، ومن ثم يجب أن يدمروا جميعـا .. أنا فقط الرجـل الفاضل أنا فقط الانسان الفاضل لأنى أمتلك زيتا ؟